الأخلامو حتى مطلع القرن الحادي عشر ق.م

د. جباغ قابلو

جامعة دمشق

إن الغاية من هذا الموضوع الموجز هي التعرف على هذه القبائل التي ظهرت في المنطقة السورية الرافدية حوالي القرن الرابع عشر ق.م من حيث طبيعة علاقاتها مع مختلف الدول التي كانت تحيط بها خصوصاً مع الآشوريين حتى نهاية عهد تيغلات بلاصر الأول (١١١٤ - ١٠٧٥ ق.م) أي حتى الفترة التي يبدأ فيها ذكرهم بالورود مترافقاً مع اسم الأراميين.

ولكن قبل أن ندخل في هذا الموضوع سنتوقف عند معنى اسم «أخلامو» أولاً.

كالعادة، انقسم الباحثون حول أصل هذه الكلمة وجذرها الذي اشتقت منه، وذهبوا في ذلك مذاهب شتى. فبعضهم يرى أنها مشتقة من الجذر خ ل م ويطرح آخرون الجذر ح ل م، وهناك فريق ثالث جعلها من الجذر غ ل م، فالتبدل الممكن ينحصر في الصامت الأول من الاسم.

يمكن تفسير الجذر خ ل م بالصديق أو الرفيق ومن ثم فإن «الأخلامو» هي «الأصدقاء أو الرفاق» ولكن هذه التسمية لاترد في أي من الكتابات التي بين أيدينا بصيغة المفرد بل دائماً بصيغة الجمع وبالتالي فإن هذه الكلمة تعني بشكل أساسي «الحلفاء أو المتحدين»(١).

وهناك معنى آخر لهذا الجذر نجده في «لسان العرب» هو «مرابض الغنم» لذا فإن هذا المعنى قد يكون معبراً عن حياة البداوة التي كانت تعيشها هذه القبائل عندما بدأ اسمها يتردد في وثائق الدول المجاورة لمناطق انتشارها(٢).

أما الجذر ح ل م فقد يدل على القوة والبأس، وما يقابلهما في العربية مثل الأناة والعقل، فأولو الأحلام والنهى هم ذوو الألباب والعقول وبالتالي فالأحلامو يمكن أن يكونوا شيوخ الأراميين وحلماءهم(٣) والجذر غ ل م يعني «الشباب» ومن ثم فإن الأخلامو أو «الأغلام» هم الفئة المحاربة من مجموع القبائل الأرامية(٤).

ونحن نميل إلى الأخذ باشتقاق الاسم من خ ل م «مرابض الغنم» وذلك للسبب الذي أوردناه أعلاه أي مطابقته لحياة البداوة التي كانت تعيشها هذه القبائل في منتصف الألف الثاني ق.م. ولانرى ضرورة للبحث عن تبدل صوتي ممكن لصوت الخاء.

الأخلامو حتى نهاية حكم تيغلات بلاصر الأول

من المعلوم أن منطقة المشرق العربي خلال القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م شهدت أحداثاً كثيرة مهمة أبرزها عودة مصر للتدخل بقوة في الشؤون السورية بعد أن أنهت مشاكلها الداخلية (التخلص من الهكسوس أولاً، وفيما بعد التخلص من نتائج فترة حكم اومنحوتب الرابع اخناتون). وكذلك الأمر فيما يتعلق بالحثيين الذين استجمعوا قواهم مجدداً في الأناضول وعادوا لمحاولة مد نفوذهم إلى المنطقة السورية خصوصاً بدءاً من عهد شوبيلوليوما الأول (١٣٨٠-١٣٤٦ق.م) مما أدى إلى الصدام بين هاتين الدولتين. أما الكباشيون فقد متنوا ما سيطروا عليه من أراضي في بلاد الرافدين شملت مناطق وسط وجنوب بلاد الرافدين. بينما بدأ الأشوريون في شمال بلاد الرافدين أيضاً بالتخلص من السيطرة الحورية الميتانية واتخذوا لأنفسهم سياسة خارجية مستقلة تمثلت بإرسال الملك الأشوري أشور أو باليط الأول (١٣٦٣-١٣٢٨ق.م) رسله إلى الفرعون المصري امنحوتب الثالث، الأمر الذي لم يرق للكاشيين ولا للحوريين الذين كانوا يعتبرون الأشوريين أتباعاً لهم.

خلال هذه الفترة تقريباً يبدأ اسم قبائل الأخلامو بالظهور في وثائق الدول التي أشرنا إليها آنفاً. وسنذكر فيما يلي أهم الوثائق التي ورد فيها ذكر الأخلامو ونبين السياق التاريخي والمعنوي لها وما يمكن استخلاصه من معلومات حول هذه القبائل.

يرد اسم هذه القبائل في وثائق مدينة ماري (القرن الثامن عشر ق.م) من خلال سياق يفيد في أن أفراداً منها كانوا يردون إلى ماري من أجل المتاجرة فيها. وبعد ذلك يرد ذكرهم في رسالة بعث بها حاكم دلمون (البحرين) إلى حاكم نيبور (نفر) ويشتكي فيها هذا الحاكم من الأخلامو الذين نهبوا تمور بلاده[٥].

إذاً في هذه المرحلة بدأ الأخلامو بتشكيل خطر على بلاد بابل، وصاروا يهددون الأمن والاستقرار فيها. ومما يعزز هذا الرأي أنه في إحدى وثائق تل العمارنه والمشوهة إلى حد كبير (EA, 200: 8-10) التي يذكر فيها أحد ملوك بابل، يرد اسم الأخلامو مرتين بصيغتي Ahlamai, Ahlama أما في الوثائق الآشورية فيبدأ ذكر الأخلامو بدءاً من عهد الملك الأشوري حدد نيراري الأول (١٣٠٧-١٢٧٥ق.م) وفي سياقين. في السياق الأول يذكر أن والده أريك دين إيلو (١٣١٧-١٣٠٧ق.م) قد حارب هؤلاء الأخلامو على حدود الدولة الأشورية فردهم عنها. وأما السياق الثاني فيذكر فيه حروبه هو ضد هذه القبائل. ففي إحدى كتاباته يذكر أنه «قضى على معسكر الخيام» التابع للأخلامو والسوتيين وغيرهما من القبائل التي كانت تعيش في المنطقة مع «كل بلادهم» والذين كانوا في حلف مع بلاد كاتموخ/ كاتموخ في شمال بلاد الرافدين ضد الأشوريين[٦].

إذاً الأخلامو هنا أصبحوا قوة تستخدمها الدول التي تعيش على حدودها في حروبها. وهي هنا تقف إلى جانب كاتموخ ضد الأشوريين، وعلى ما يبدو فإن الخطر الذي كان يشكله الأشوريون على الأخلامو كان كبيراً مما دفع بهؤلاء للانضمام إلى أعداء الأشوريين في الحروب التي دارت بين الطرفين. ولكن هذه الهزيمة لم تنل من عزيمة الأخلامو الذين عادوا للتحالف مع أعداء الملك الأشوري شلمناصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٣ق.م) الذي يذكر في إحدى كتاباته أنه انتصر على الملك الحوري الميتاني شاتاوازا مع «الفرق الحثية والأخلامو» ويذكر شلمناصر الأول أنه «قتّلهم كالأغنام»[٧].

ومن المعلوم أن الحثيين في هذه المرحلة بدؤوا يخشون من ازدياد التوسع الأشوري نحو مناطق شمال سورية وبلاد خانيغالبات والتي كانوا يعتبرونها مناطق تابعة لهم ولذلك كان الملوك الحثيون المتعاقبون (شوبيلوليوما الأول، مورشيلي الثاني... الخ) يكلفون نوابهم في كركميش بمهمة التصدي للخطر الأشوري الذي يهدد مناطق الفرات وشمال سورية[٨].

وهناك رسالة من الأرشيف الحثي في بوغازكوي (خاتوشا) تعود لفترة حكم خاتوشيلي الثالث (١٢٧٥-١٢٥٠ق.م) تشهد على مدى ازدياد نشاط قبائل الأخلامو في منطقة البادية السورية. وهذه الرسالة هي رد على مراسلات سابقة كانت قد جرت بين هذا العاهل والملك الكاشي في بابل قداشمان انليل الثاني.

ومن خلال الرد يُفهم بأن الملك الحثي كان قد وجه رسالة إلى الملك الكاشي يستفسر فيها عن السبب الذي

دفع بالملك الكاشي إلى وقف إرسال رسله إلى العاصمة الحثية كما كان يفعل في السابق. في رده على ذلك، ادعى الملك الكاشي أن الطريق بين العاصمتين أصبحت خطرة بسبب الأخلامو. وفي الرسالة التي سنستعرضها الآن سيستغرب الملك الحثي هذا السبب الذي يبدو من وجهة نظره غير مقنع. يقول الملك الحثي في الرسالة (الوجه الأمامي. KBO, 1-10 الأسطر ٣٦-٣٨)

٣٦ - هكذا (يقول) أخي (قداشمان انليل) فيما يتعلق بكتابته لأخيه (أي خاتوشيلي الثالث). هكذا أنا توقفت عن (إرسال) رسلي ٣٧ - الأخلامو أصبحوا أعداء (Aḫ-la-nu-u-na-ak-ru) لذلك أنا توقفت (عن إرسال) رسلي! ماذا يعني هذا؟ (٣٨) أنت أخي (حقيقة) بسبب الأخلامو توقفت (عن إرسال) رسلك؟ هل مملكة أخي (أصبحت) مملكة صغيرة؟

وفي مكان أخر - ولكن غير مفهوم بشكل تام يذكر اسم الأخلامو مرة أخرى في السطر ٤٣ من نفس الرسالة.

إذاً من وجهة نظر قداشمان انليل فإن الأخلامو أصبحوا أعداءً، ولذلك توقف عن إرسال رسله إلى خاتوشا. ولكن إلى أي حد يمكن اعتبار هذا الكلام صحيحاً؟ أي إلى حد كان الأخلامو بالفعل قادرين على تهديد الطريق الواصل بين الدولتين والمار عبر الشمال السوري؟ من الصعب تقرير ذلك حيث من المحتمل أن يكون قداشمان انليل الثاني، يقوم بمناورة سياسية حيث أنه لم يرد أن يوتر علاقته مع الأشوريين جيرانه في الشمال خصوصاً وأن قوتهم في تزايد على حساب علاقته مع الحثيين البعيدين عن حدود دولته، والذين ربما كان من الصعب عليهم مد يد العون إليه في حال تعرضه للخطر الأشوري لذلك تذرع بالأخلامو.

في فترة حكم توكولتي نينورتا الأول (١٢٤٣-١٢٠٧ق.م) أخضع الأشوريون مجموعة كبيرة من المناطق الواقعة إلى الغرب من بلادهم بما فيها «جبال الأخلامو» والتي يعتقد أنها جبال بشري، حيث أرسل هؤلاء الأخلامو الجزية التي فرضها عليهم الأشوريين نتيجة حملاتهم عليهم من هناك[٩].

ويذكر أحد خلفاء توكولتي نينورتا الأول وهو أشور ريش إيشي (١١٣٠-١١١٥ق.م) أنه اشتبك مع الأخلامو ودمر فرقهم عن بكرة أبيها[١٠].

الأخلامو في عهد الملك تيغلات بلاصر الأول

يُعد الملك تيغلات بلاصر الأول (١١١٤-١٠٧٥ق.م) آخر الملوك الكبار في الدولة الأشورية الوسطى، إلى جانب كونه من الملوك المحاربين فهذا الملك خاض حروباً عديدة وعلى جبهات مختلفة: في الجنوب ضد بابل، في الشمال والشمال الغربي في الأناضول خصوصاً ضد القبائل الكاسكية، وأخيراً في الغرب في سورية ضد الأخلامو وباقي القبائل والدويلات السورية وصولاً إلى البحر المتوسط.

بدءاً من عهد هذا العاهل، أخذ يُنظر للأخلامو على أنهم «أعداء الإله الأشور (nakrüt il aššur) وبالتالي كأعداء لكل الأشوريين. والصراع مع الأشوريين استمر في العهود التالية الأمر الذي عكسته بوضوح المصادر الأشورية والنصوص التي خلفها الملوك الأشوريين المختلفين.

وسنعرض فيما يلي لبعض النصوص التي تأتي على ذكر الأخلامو والواردة في كتابات هذا الملك الأشوري.

في الكتابة المعروفة باسم «النقش على الموشور» يرد ما يلي:

وبمساعدة الإله أشور، سيدي، العربات وجنودي أخذت. (إلى) الصحراء أنا وصلت. في (قلب) مركز الأخلامو الآراميين، أعداء الإله أشور سيدي، أنا توجهت. (البلاد) من بلاد سوحي حتى مدينة كركميش بلاد خاتي، في يوم واحد دمرت، جنودهم أنا قتلت، غنائمهم ثرواتهم وممتلكاتهم بكميات كبيرة أنا نقلت، ومتتبعاً بقايا الجيش (الجنود) الذين من الخوف من أسلحة الإله أشور (سيدي)، هربوا واجتازوا نهر الفرات. أنا خلفهم بمراكب من الجلد. عبرت نهر الفرات. ستة من مدنهم (ālāni-šu-nu) التي عند سفوح جبل بشري، أنا استوليت عليها، أحرقتها بالنار، حولتها إلى رماد، وثرواتهم إلى مدينتي أشور نقلت»[١١].

وفي كتابة أخرى للملك نفسه دونت على جدران القصر الملكي في مدينة أشور نقرأ: « ٢٨ مرة، نهر الفرات، باتجاه بلاد الحثيين، خلف الأخلامو الأراميين، مرتين في كل عام، أنا عبرت. من سفوح (جبال) لبنان، تدمر في أمورو، عناة في سوحي، حتى رابيقو في كاردونياش، أنا أتممت القضاء عليهم، غنائمهم وثرواتهم، أنا نقلت إلى مدينتي أشور »(١٢).

إن ورود اسم الأخلامو مترافقاً مع اسم الأراميين بدءاً من عهد تيغلات بلاصر الأول، فتح المجال أمام الباحثين لطرح عدة آراء تتعلق بالعلاقة بين هاتين التسميتين بهدف الوصول إلى العلاقة التي ربطت بينهما. هل هما مجموعتان قبليتان مختلفتان تماماً عن بعضهما؟ أم أن الأصل هم الأخلامو والأراميين هم فرع عنهم؟ أم العكس، أي أن الأصل هم الأراميين والأخلامو هم الفرع.

فقد ذهب Forrer إلى أنها تعني Aramäische Ah̲alame: الأخلامو الأراميين. وانطلاقاً من ذلك فيجب اعتبار الأخلامو أراميين إذ بدون إضافة كلمة aramia (الأراميين) كما يفترض فورير، فإن الأخلامو لم يكونوا ليعتبروا أراميين. ومن هنا يمكن الوصول إلى نتيجة مفادها أنه في تلك الحالات التي يرد فيها في النصوص اسم الأخلامو فقط Ah̲lame فإن يجب ألا يُنظر إليهم على أنهم من الأراميين الخلص أو الأصليين. أما Unger فقد طرح مع غيره فرضية مفادها أن تسمية الأحلامو أطلقت على الأراميين الرحل الذين كانوا يقطنون شمال بلاد الرافدين ولا يشك أبداً في أنهم كانوا يشكلون جزءً من القبائل الأرامية.

وأما في المؤلفات الأكثر حداثة، فإنه ينظر إلى الأخلامو على أنهم قبائل نصف بدوية أرامية(١٣). ورغم أن بعض الباحثين يعتبرون حتى الآن أن الصلة بين الأخلامو والأراميين غير واضحة فإنهما من حيث المضمون قريبين من بعضهما(١٤). ولكن تحديد هذه القرابة أمر غير مثبت حتى الآن.

وأخيراً أحب أن أشير إلى الرأي الذي نميل إليه في هذه المسألة والذي يتلخص في أن الأخلامو كانوا يشكلون جزءً من القبائل الأرامية التي احتكت بالدول المجاورة لمناطق انتشارها أولاً. ولكن وتحديداً عندما تعمقت القوات الآشورية خصوصاً في هجماتها نحو الغرب (أي سورية) اصطدمت مع الكتلة الأساسية من هذه القبائل أي القبائل الأرامية وبالتالي بدأ الاسم العام بالظهور في وثائق هذه الدول بشكل أكبر ليحل في النهاية محل الاسم الخاص، أي اسم الأراميين محل اسم الأخلامو.

الهوامش:

١ ـ O. CALLAGAHAN R.T., 1984, *Aram Naharim*, Rome, p. 95.

٢ ـ انظر مادة خ ل م في لسان العرب لابن منظور.

٣ ـ حرب فرزات، ١٩٨٥، «عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الآرامي القديم (حتى أواخر القرن الثامن ق.م)»، مجلة *دراسات تاريخية*، العددان ١٩ ـ ٢٠، ١٩٨٥، ص. ١٧٧.

٤ ـ علي أبو عساف، ١٩٨٨، الأراميون تاريخياً ولغة وفناً، دار أماني، طرطوس، ص. ١٦.

٥ ـ أبو عساف: المرجع السابق، ص. ١٢.

٦ ـ Luckerbill D.D: *Ancient Records of Assyria and Balylonia*, 2 vol. Chicago 1926-1927, VI N.73 والمعروف اختصاراً *ARAB*

وأما بلاد كوتموخ الواردة في النص فهي المنطقة الواقعة على المجرى الأعلى لنهر دجلة وعلى ضفته اليسرى.

٧ ـ *ARAB*, I, N 116

٨ ـ كلينغل، ١٩٩٨، تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠ ـ ٣٠٠ق.م، ترجمة سيف الدين دياب، مراجعة وتدقيق عيد مرعي، دمشق، ص. ١٣٦-١٤٢.

٩ ـ *ARAB*, I, N° 165

١٠ ـ *ARAB*, I, N° 211

١١ ـ ص ١٣٢ *ARAB* I, N° 324, RLA, I 1932

١٢ ـ ص ١٣١ E. FORRER: Aramu, *RLA*, I 1932

١٣ ـ ص ٥٧ E. UNGER: Ahlami, *RLA*, I 1932

١٤ ـ ص ٢٩٥ H. KLENGEL: *Kulturgeschichte des alten Vorderaesien* Berlin 1989.